فلـــسفة الحـــركات
في اللغة العربية

الأستاذ الدكتور أحمد الأخضر غزال
مدير معهد الدراسات والأبحاث للتعريب
الرباط

1 . القسم الأول:

من المعلوم أن اللسان هو العضلة الأساسية التي داخل الفم لإخراج الأصوات اللغوية بمشاركة أعضاء أخرى خصتها طبيعة التركيب البدني بالمساهمة في إنتاج الكلام على أساس تبثق نفساني بديع بتصرف في عمليات بدنية متسلسلة خلاصتها أن موجات صوتية متتالية منشؤها ذبذبات فيزيائية تنتشر في الهواء و تدخل في الأذن فتتحول عندما تصدم العصب السمعي إلى سيالة (أي كهرباء بدنية) تتسرب إلى ملايير الخلايا الدماغية لتثير صورة سمعية تنشأ عنها صورة بصرية ويجب أن تكون الصورتان متطابقتين تطابقا تاما وإلاَّ حصل سوء الفهم, ويحدث في الدماغ أثناء التفكير وقبل الرد بالجواب بموجات أخرى ما يحث فتنطلق من فم المجيب ذبذبات أخرى تنشئ موجات بدورها تطير في الهواء وتصدم أذن المستمع وتلتقي بعصبه السمعي, فتتحول إلى سيالة أخرى وتصل إلى وحداته العصبية لتثير صورته السمعية؛ ويجب أن تكون صورتها البصرية مطابقة لها مطابقة تامة وإلا حصل سوء الفهم من جديد, ويحدث من التفاعلات الكيميائية والفيزيائية والإحيائية (أي البيولوجية) والنفسانية والروحانية والعقلية وغيرها. ولا يدوم هذا كله إلا مدة رمشة العين قبل أن ينبث الأمر بالإجابة فتتسرب بالسيالة من جديد من المراكز والمناطق الخاصة بالكلام والسمع والبصر لتحرك بواسطة أعصابها العضلات المتحكمة

في أجهزة الكلام كالحنجرة وأوتارها وغضاريفها, وكالفم وبلعومه وحفافه ولسانه وشفتيه فيخرج الكلام بكل أنواع أصواته الشديدة منها والمتوسطة والخفيفة والثقيلة والطويلة والقصيرة, إلى غير ذلك من غرائب خلق الله وعجائبه سبحانه تعالي عز وجل.

الأصوات اللغوية: وإذ لا حركة ولا سكون لا بإذن الله فإن الأصوات التي يخرجها الإنسان من جهازه لا يخرجها بدون سبب كما أنّ لكل ما يصدر عن الإنسان ولكل ما يحصل له أسبابا منها المجهول ومنها المعلوم, بله كل ما يقع ويحدث في هذا العالم بمعناه العام له أسباب, ولهذه الأسباب أسباب أخرى لها أسبابها التي تنشأ عن أسباب, منها المجهول ومنها المعلوم, إلى غير ذلك من أسرار الطبيعة التي لا نعرف عنها إلا القليل وعلم الإصاتيات يخبرنا بالحركات التي تؤدي بالجهاز الإصاتي إلى إخراج الصوائت(فونيمات) التي تشكل الحروف ويجعلها نقف عند حدود الفوارق ومؤثراتها.

ففيما يخص صويته الباء بالنسبة إلى صويتة الهاء مثلا نعلم جميع ما يحدث أثناء التلفظ بهاتين الصويتتين, فإن الباء يتطلب إخراجها مجهودا أكبر من المجهود الذي يقتضيه إخراج صويته الهاء لأنه يفرض العمليات الآتية:

يحث نشاط كيميائي وكهربائي تفاعلي داخل المشتبكات (والمشتبكات هي الأمكنة التي تشتبك فيها الاستطالات الشعرية الخاصة بالوحدات العصبية التي تناسب معها السيالة العصبية, وهذه

المشتبكات شبه مراكم كهربائية (أي بطاريات) فيها عدة خلايا في كل واحدة منها مادة كيماوية أساسها الكالسيوم والبوطاسيوم والصوديوم وأنواع مختلفة من العناصر النادرة: كالحديد والمنغانيز والبور والماغنيزيوم والكوبالت الخ.....والكل منماتْ (ذائب) في سائل خاص يسمى الخيل المراري "الاسنيبلوكولين" والتفاعل الكيموي الذي يحدث في هذه المشتبكات يخلق الكهرباء الخاصة بالبدن وهي السيالة, وهذه السيالة مهمتها حمل الإهاجات أي الطلقات العصبية, إلى الوحدات العصبية الأخرى أو إلى أجهزة التنفيذ المحيطة كالعضلات مهلا. وفيما يخص نقطة موضوعنا بالضبط تتسرب طلقات سيالية نحو عضلات الحجاب الحاجز لترتفع الأضلاع فتنتفخ الرئتان إذ ذاك ويحث امتصاص للهواء الخارجي الذي يتسرب إليهما من منفذ الأنف أو الفم أو منهما معا . بعد أن حصلت في مستبكات أخرى من الدماغ عمليات أخرى لأمر عضلات الفم بفتحه .

فينساب الهواء مع الرغامي أي القصبة الرئوية, إلى القصبتين اللتين تتشعبان في الرئتين, وذلك بعد حدوث إهاجات أخرى في الدماغ أمرت عضلات الحنجرة بإبعاد الوترين الصوتيين الواحد عن الأخر لينفسح المجال أمام الهواء الجاري نحو الرئتين, ثم بعد ذلك تنطبق الضفتان إحداهما على الأخرى عندما تضغط الرئتان الهواء ليفر منهما متسربا مع الرغامي فيجد الأوتار الصوتية قد تباعدت لتسمح له بالمرور فيصل إلى البلعوم, وعند ذلك أو قبل ذلك بقليل يرتفع الحفاف

بلهاته وينطبق على منفذ الأنف ليسده مانعا الهواء من التسرب منه حتى لا تحصل الغنة في صوت الباء, ثم يصل هذا البواء إلى الفم ويريد النفوذ من بين الفتين فيجدهما منطبقتين كما أسلفنا فيصدمهما ويحاول تفريجهما فتزداد حركة عضلات الشفتين تقلصا, ويزداد انضمام الشفتين شدة لمنع الهواء من الخروج ويشتد ضغط بالتقبض والتقلص, وإذا بالوترين الصوتيين يقتربان ويشرعان في التذبذب لإنشاء ما يسمى باللحن الحنجري الذي سيجعل من حرف الباء حرفا مجهورا لا مهموسا فتحصل إذ ذاك عملية الترنن وهي فيزيائية محضة, وفجأة تتباعد الشفتان إحداهما عن الأخرى وينفلت الهواء المضغوط بعنف وشدة خارجا من الفم المفتوح وحاملا صوت الباء الجهيرة عبر الهواء الطلق في شكل موجات صوتية.

هذه العمليات كلها بتناسقها العجيب وأنواع حركاتها الدماغية والعصبية والعضلية الدقيقة هي التي تتطلبها الباء ونحن غير شاعرين.

أما الهاء فلا شيء من ذلك فيها إلا خروج الهواء الحامل ذبذبات الوترين الصوتيين بينما تكاد أعضاء الفم تكون في حالة استراحة وارتخاء.

وما يحدث للباء خفيف بالنسبة غلى القاف والكاف والراء والخاء والشين والصاد وثقيل بالنسبة إلى الحاء والعين والغين والفاء والهمزة الخ...

وإذا اشتد خروج الأصوات الثقيلة فذلك لسبب, وإذا خف فذلك لسبب أيضا أراده العقل ليعبر عن الشدة مع الأصوات الشديدة وعلى الليونة مع الأصوات اللينة ومثال ذلك: هف وقض, فهفت الريح: هبت فسمع صوت هبوبها, وهب الشيء: خف, وهبّ الرجل: أسرع في سيره, والهف: الخفيف من الناس, وكل شيء خفيف لا شيء في جوفه والسمك الصغار, وسحاب هف: رقيق لا ماء فيه. بينما نرى في قض ما يلي: قض عليهم الخيل أرسلها ونشرها, وقض الحائط: هدمه هدما عنيفا, وقض الوتد: قلعه, وقض الشيء: دقه, وقض السير أو الوتر: سمع له صوت كأنه قطع غلى غير ذلك من المعاني, فكلما خفت في هف اشتدت في قض.

وهناك فكرة أخرى وهي فكرة الاستساغة, استساغة الصوت بالنسبة للمدلول فإن كان صوت الهاء لا يتطلب نفس الجهد الذي تتطلبه القاف والراء مثلا فإن أصوات الحروف وأنغامها ورنينها وأجراسها موضوع استحسان أو استخشان من طرف اللسان (انظروا هنا إلى الفرق بين مادة حسن ومادة خشن, فالحاء لطيفة والخاء ثقيلة) فلكل لطيف وأنيق وجميل وحلو ومطرب ومفرح ومستعد أصوات لطيفة لينة موسيقية, ولكل خشن وثقيل وخبيث وبشع ومقلق ومحزن إلخ... أصوات تناسب تلك الصفات بمعاني أصواتها.

وهذه الأفكار انتبه إليها فقهاء اللغة القدماء فخصصوا لها أبوابا مشهورة عنونوها بمطابقة اللفظ للمعنى, ومن أشهرهم في هذا بن جنى

كما ألفوا فيها كتبا أشهرها قاموس مقاييس اللغة لأحمد بن فارس, إلا علماءنا المحدثين ممن تتلمذوا على العلماء الأوروبيين أقلعوا عن هذه الأبحاث النفيسة لأنهم عملوا بنظريات العلماء الغربيين الذين فشلوا في بحث هذا الموضوع ولا غرابة, لأنهم لم يحافظوا على لغتهم الأصلية فأصبحت لغاتهم خليط لهجات لا تطابق طبيعتها عبقريتهم, إذ لكل شعب خصائصه اللغوية لا سيما في موضوع الاستساغة؛ فهذا الشعب الألماني مثلا يستحسن صويته الخاء وصويتة الراء الرنانة؛ بينما الشعب الفرنسي يستقبحهما, وهذا الشعب الإنكليزي ينفر من "تغنين" الإنكليزية, بينما الشعب الأمريكي يستحسنها وبينما لا نرى شعبا أوروبيا يجيد صوتية ألأو(U)إذا بالشعب الفرنسي يكثر منها وتغلب صويته الشين في البرتغالية, كما تغلب عملية التقمر البلعومي في اللغة الروسية, وما أحلى صوائت الحاء والهاء في أذننا وما أقبحها في أذن غيرنا الخ... من الاعتبارات التي يرجع سببها إلى اختلاف الذوق.

لهذا كله لا تصح هذه النظريات إلا في موضوع لغة أصيلة بالنسبة إلى شعبها الأصيل, ومعنى هذا أنها لا تنطبق على الألفاظ الدخيلة والأجنبية مع مراعاة التفاوت داخل شعب واحد, ومن قبيلة إلى قبيلة، ومن بطن إلى بطن, ومن حي إلى حي، وحتى من عائلة إلى عائلة, ومن أسرة إلى أسرة.

ولا ننتظر الوصول إلى نظرية شاملة قائمة على أسس متينة في مدة قصيرة لأن في هذا المطلب من التداخل في الأصوات باعتبار

الحقيقة والمجاز وباعتبار الأقدمية والإحداثية وتغير الصوائت عبر التاريخ بالنسبة إلى اللهجات العربية من جهة وبالنسبة إلى تغير الدلالات من جهة أخرى مما هو في الحاجة إلى تضافر الجهود وتبادل الخبرات وتوفر أجهزة العد والإحصاء والترتيب والتصنيف, الشيء الذي ينقصنا اليوم وقد يتبادر إلى الذهن العلم في متناول أي شخص إذا ما اعتمد على الملاحظة والمقارنة بوسائله الخاصة, كل ! وحذار هم حذار ! لأن أجدادنا اللغويين وهم المعروفون بالدقة والاجتهاد وسعة الباع إن أجادوا في بعض هذا العلم فإن وسائل نقصتهم فتوهموا في بعضه الآخر.

وإذا كانت الحروف تتكون من الصوائت فإن الكلمات تتكون من الحروف, , و إذا كان لكل حرف معنى فإن مجموع معاني الحروف يؤدي غلى معنى الكلمة, ومجموع معاني الكلمات يؤدي غلى معنى الجملة, وهنا قال علماؤنا بمطابقة التراكيب للمعاني كذلك , وقالوا إن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى, بدون اعتبار دوران الحركات في الأوزان, فبحر جمعه بحور وبحار وأبحر وأباحير وأبحار قليل التركيب لأنه يدل على المفرد وجموعه أطول منه لأنه يدل على الكثرة, ولكن تحديد المعاني بالتراكيب اختلف فيه كما اختلف في ما سبق لعدم توفر مواد البحث في ما وصل إليه العلم الحديث, إلا أنهم تركوا هذا الموضوع لتعقده وإشكاله فلم يعيروا الحركات الأهمية التي تستحقها, وغلبت عليهم نظرية السماع والقياس التي كانت سائدة في العلوم

اللغوية آنذاك, مما أدى غلى ما يسعى اصطلاحا بالعامل المؤثر باعتبار متن اللغة أو في ما هو ضمني باعتبار الإعراب كل ذلك لغاية واحدة هي المحافظة على التراث اللغوي وعلى القرآن ورفع اللحن الذي كان قد انتشر بصورة مهوله أضف إلى ذلك أنه كلما ثبت عند بعضهم القياس إلا وأضعفته شواهد سماعية شاذة, مما أدى إلى بلبلة ألأفكار واللجوء إلى السماع مع الإبقاء على فكرة القياس رمزيا لأن أحداً من القائلين بالقياس لم يجرؤ على تغيير ما أصبح شائعا من اللغة وإحلال القياس محل السماع فبقدر ما درسوا معاني الحروف وتوفقوا في بعض نواحيها بقدر ما فشلوا في معاني الحركات ولم يصلوا إلى نتيجة علمية تجعلهم يشيدونها بمثابة قاعدة فكلهم قالوا عن الفتحة: إنها أخف الحركات العربية لذلك كثرت في اللغة وقالوا عن الضمة: إنها أثقل من الفتحة وقالوا عن الكسرة: إنها أثقلهما إذن بنوا حكمهم فيما يرجع إلى الحركات على أساس سمعي لا جسماني كما فعلوا ذلك فيما يخص الحروف وهذا الأساس السمعي هو الذي سنحاول الكشف عنه:

فجاء إبراهيم مصطفى في عصرنا الحديث وألف كتابه المشهور "إحياء النحو" الذي كان له أكبر صدى في هذا الميدان, فعلل الفتحة بأنها أخف الحركات, وأنها تدل على شيء وعلل الضمة بأنها علم الإسناد ودليل على أن الكلمة المرفوعة يراد بها الإسناد إليها والمحادثة عنها أما الكسرة فإنها علم الإضافة, وأشار إلى ارتباط الكلمة بما قبلها

سواء كان هذا الارتباط بأداة أم بغير أداة وقال إبراهيم أنيس بعدم معاني الحركات في الإعراب (انظر أسرار العربية). وقال المخزومي: ليست الفتحة علما لشيء خاص ولكنها علم كون الكلمة خارجة عن نطاق الإسناد (الذي هو للضمة) أو الإضافة (الذي هو للكسرة) وأن الفتحة هي الحركة الخفيفة المستحبة التي يهرع غليها العربي ما وجد غلى الخفة سبيلا وهو رأي الخليل وسيبوبه وأما إبراهيم السامرائي فإنه يقول في الفتحة: إنها وجدت في كثير من اللغات السامية: إلا أنه سرد أقوال "مارسيل كوهن" و"بوهان فوك" اللذين يثبتان با، اللغات السامية كان لها إعراب, ولم أعثر على نظر له في هذا الموضوع أما إثبات الإعراب فإنه جاء في معظم كتب اللغة من الصاحبي والمزهر إلى كتب فقه اللغة الحديثة.

ومن الذين عالجوا هذا الموضوع عبد الله العلا يلي الذي قال: باب ضرب يضرب"يخضع له التلبس بحركة الفعل في الزمن الحاضر, بينما الخمسة الأخرى فلإفادة معنى زائد...فإذا أردت الدلالة على التفوقية أو التركب فو الدلالة على التلبس بالحال الفعلية تنقل الفعل إلى باب نصر ينصر, ولذا طرده اللغويون في المفاخرة و المبالغة (فامرته فقمرته فأنا أقمره) وإذا أردت الدلالة على التقلب والانشراح تنقل الفعل إلى فتح يفتح ولا تلق بالا إلى ما اشترطه اللغويون من أن هذا الباب خاص بما كان عينه أو لامه حرف حلق فهو تقدير واهن... وإذا أردت الدلالة على التغير خلوا وامتلاء وجوادا أو عدما تنقل الفعل إلى

علم يعلم... وإذا أردت الدلالة على الرسوخ والطبع تنقل الفعل إلى حسن يحسن, وإذا أردت الدلالة على التجزؤ (والتقسم تنقل الفعل إلى باب ورث يرث (انظر المعجم للعلايلي).

وهذه الأقوال كلها إما تكرير لما قاله القدماء وإما استنباط منها, إذ قالوا إجمالا إن "فعل" . يفتح العين . لمعان كثيرة لا تنضبط, منها الغلب: قامرني فقمرته أقمره أي أغلبه في القمر؛ ومنها أن أفعال الحدوث تندرج تحت عنوانه . بينما فعل يشمل أفعال الغرائز والطبائع, فيدل على لزوم مداولاتها لأن ما يقتضيه الطبع يدوم بدوامه وتكثر فيه العلل والأحزان وأضدادها... وتجيء في غير فعل إلا أنها فيه أكثر منها في غيره؛ وفعل للطبائع وهي الأفعال اللازمة الصادرة عنها, وخص الضم بها لانضمام الطبيعة إلى الذات عند صدور هذه الأفعال منها كانضمام الشفتين عند خروج الضم منها.

وفي الحرف الأول من الفعل قالوا: لما كانت العربي لا تبتدئ بساكن فلا تكون فاؤه ساكنة ولا تكون مكسورة . إلا للضرورة وذلك عندما يكون الفعل أجوف وبني للمجهول أو من باب فعل وهو أجوف كذلك وتضم كذلك في الأجوف من باب فعل لا غير . إذن تكون مكسورة القوة الكسرة وهو قليل لأنه يتغير وليس بثابت كالأسماء، ولا تضم إلا إذا بني المفعول، فيبقى الفتح في قاء كل فعل ماض . أما الحرف الأخير فهو مبني على الفتح إلا إذا طرأ عليه ما يضمه أو يسكنه وحرف الوسط فقد ذكرنا ما جاء عندهم فيه. ونستنتج مما سبق

أنه ليس هناك قاعدة عامة يطمئن الفكر غليها ويركن, وأن السماع هو الأساس بيد أنه إذا تتبعنا بإزاء معالجة معاني الحروف, معاني الحركات فد نهتدي على شيء مضبوط ناتج عن الإحصاء من جهة وعن اعتبار قانون الجهد والكسل المهيمن على كل ما هو من قبيل تصرف الإنسان في عميق حياته إذ منذ أن ظهر الإنسان على البسيطة إلا وحاول وما يزال يحاول أن يوفر لنفسه أسباب الحياة بأقل جهد ممكن, مما أدى به إلى هذه الاختراعات العجيبة التي يريد تسخيرها لخدمته ليعيش سعيدا, والسعادة لديه معناها الحصول على كل ما من شأنه أن يلبي رغائبه وحاجاته وآماله بلا تعب ولا مشقة أضف إلى ذلك أن له نشاطا عقليا جعله يتصور العالم بصورة مختلفة باختلاف الأغراض والهوايا والأماني والخيال والشعور, وبما يؤثر به على الطبيعة وعلى غيره من البش, وبما يتأثر به من الطبيعة ومن المجتمع ومن الأسباب التي دفتنا إلى التركيز البحث على معاني الحركات التناقض الظاهر في مدلولاتها.

فهذه اللغة العربية تبدو لك في كتابتها مبنية على أساس حروف صامتة, وهذه الحروف لا تصوت إلا مع علامات خاصة توضع فوقها أو تحتها, وهذه العلامات لا تنطلق وحدها لأنه لا يوجد في العربية معنى يفاد بصوت حركي مفرد كما هو الشأن في اللغات الأوروبية حيت "أو" (ou) مثلا تفيد مدلول المكان, أو التخير؛ يعني أنه لا يوجد لفظ مكون من حركة واحدة والكلام كله صوانب (جمع صوبنة =

فونيم) مركبة من حروف مع حركاتها لا من حروف وحدها ولا من حركات وحدها فالكلام عند العربي من كلم, أي: جرح وشق بمعنى: فتح (الصمت فهو مكاشفة ومباشرة من الكشف, أي: رفع الستار عن المختبئ, ومن البشر أي: الشق والفتح والعربي ويعتبر أن الإنسان في سكوت وسكون وهدوء بالنسبة غلى العالم الذي يعيش فيه وبالنسبة غليه أي: إلى وضعه فيه, فهو يكلم هذا العالم الغريب عند التعبير كما يفطر ذلك الصمت الذي هو الصيام لذا سمي إفطارا من فطر أي شق وقطع)، الله فاطر السماوات والأرض أي: خالقها من فعل خلق أي: شق: خلق وخرق وخرج وحرك الخ. والحركة إما يقوم بها الإنسان وإما تحصل له من غيره من البشر الذي يعيش معه أو من العالم الذي هو فيه بالنسبة غلة عناصره من ريح ورعد ومطر ونار الخ.. فهو إما مؤثر في العالم وإما متأثر به فالعربي، بهذه الفلسفة التي تتجلى في لغته واضحة لأنه حافظ نسبيا على أوضاعها بينما نراها اندرست في اللغات الأخرى يرى العالم في أبعاد ثلاثة كما أن لغته مبنية على ثلاث حركات: حركة الفتح أي: التأثير في العالم الخارجي وهو عمل صادر عن الإدارة، مثل: ضرب وقتل وخرج ونطح وقطع وأكل وفتح ودخل وصرع الخ.. وكلها أفعال مفتوحة العين لأن الفتحة تدل على العمل الصادر عن الفاعل بإرادة منه حقيقة أو مجازاً . ثم حركة الكسر أي: التأثر الذي يحصل للفاعل من طرف العلم الخارجي, فالكسر والخسر والقصر والخزل كلها بمعنى حصول الشيء للفاعل المغلوب

المقهور فالفعل المكسور العين يدل على كل ما يحصل للفاعل المغلوب المقهور فالفعل المكسور العين يدل على ما يحصل للفاعل بدون إرادة منه حقيقة أو مجازا, مثل: مرض وحزن وعطش وعلم وفرح وسقم وغرق وعور وحدب وجزع الخ... ثم الصم (والطم والتم ولكلها تدل على التجمع والكثرة والدوام والثبات) كـ: حسن وخشن وكبر وسفر وقرب وعرج وعود ودخن وشرف, وكلها بمعنى حصول الشيء للفاعل لا حصولا طارئا أو مؤقتا كما هو في فعل بل بكثرة ودوام وثبات ونهاية كل هذا مبني على أساس قانون الجهد, والكل الذي أشرنا إليه فيما أن الحروف بشدتها ورخاوتها, برخومتها وخشونتها تصدر عن الإنسان للدلالة على الشدة والرخاوة والرخومة والخشونة في الأشياء وأوصافها فإنّ الحركات كذلك يجب أن تعتبر على هذا الأساس الجسماني, إلا أن فكرة الثقل والخفة بالنسبة غلى الأذن حسب ما ذهب غليه الأقدمون فكرن ناقصة لأنها مبنية على ظاهر اللفظ لا على باطنه المحرك الذي هو النشاط العصبي الدماغي بالنسبة غلى تحكم الإنسان في كلامه وإذا كان ذلك فلنا ثلاث حركات تقوم بها أعضاء الكلام إخراج ثلاثة أنواع من الحركات: الفتحة والضمة والكسرة التي تتصرف في جميع اللغة, فلماذا الفتحة تدل على العمل الإرادي؟ لأن فكي الفم عند إخراج صويتة الفتحة يبتعدان الواحد عن الأخر, وما الذي يبعدهما؟ ثلاث عضلات: الأولى عضلة قوية جدا عريضة وغليظة تسمى الماضغة Masseter وعضلة ثانية تساعد الأولى

وهي الجناحية ; Ptérigoidien وعضلة ثالثة هي الصدغية Temporal تساعد الثانية إذن ثلاث عضلات قوية لرفع الفك الأسف حتى يتمكن الفم من العض والقطع للمأكولات وهذه العملية عملية إقفال الفم . هي أساس حياة الرجل لتلبية حاجته الأساسية ليعيش أما إبعاد ذات البطنين Digatrique والضرسية الأمية Mylohyoidien والذقنية الأمية Génilhyoidien فعملية الأقفال إذن بفضل عضلاتها القوية أسهل وأيسر من عملية الفتح الضعيفة العضلات؛ فإخراج الفتحة أصعب من إخراج الضمة التي تقتضي فتحا أقل من الذي للفتحةو وهي أصعب بدورها من الكسرة التي تقتضي انفتاحا قليلا للفم حتى أن صويتة الكسر قد تخرج ويكاد الكفان يكونان منطبقين الواحد على الآخر وفي الحقيقة إذا قال القدماء بخفة الفتحة وثقل الضمة والكسرة باعتمادهم على ظاهرة الجمال الصوتي فذلك له أساس في أعماق الإنسان ألا وهو الكلام المفتوح يروق لما يوحي به من حركة ونشاط وحيوية وإرادة بالنسبة إلى الكلام المكسور يروق لما يوحي به من المكسور الذي يشير إلا الانهزام والخضوع والرضوخ, وبالنسبة إلى الكلام إلى الضم الذي يدل على التراكم والتفاقم والسكون والركود.

وإذا تمهلنا في هذه النظرية وتأملناها تأملا متئدا عميقا في حد ذاته, ثم بالنسبة إلى أصول اللغة لا إلى فروعها وأخطائها وشائعها و وتبصرنا أمورها الباطنية اعتمادا على فلسفة الحركات بالنسبة إلى

البدن البشري, وطبقناها تطبيقا محكما, أمكننا إذ ذاك أن نشيد نحوا جديدا منطبقا يكشف لنا الستار عن النحو القديم الأصيل الذي بني عليه العرب القدماء لغتهم فأصبحت مطابقة لأغراض عقلهم وشعورهم وأحاسيسهم, أي: بكلمة واحدة مطابقة للحياة, إذا فعلنا هذا ستصبح إذ ذاك العربية أسهل اللغات بالنسبة إلى العقل, أي: بالنسبة غلى ما يريد العقل التعبير عنه فيمكن حينئذ أن نسترجع ملكة اللغة العربية التي ضاعت وصحيحها بدون معيار للتمييز بين الصالح والفاسد وبين التطور الدائر المكرر والتقدم القاصد الهادف إلى الكمال.

الأمثلـــة:

خذوا مثلا مادة "دخن" التي جاءتنا منها الأبنية الثلاثة: دخَن ودخِن ودخُن, فإنكم تجدون ما يلي:

دخن (بفتح العين) الدخان: إذا سطع وارتفع وهنا تشخيص للدخان وكأنه يرتفع بإرادة منه.

ودخنت (بفتح العين) النار: ارتفع دخانها (أي أطلقت الدخان فارتفع, وهنا تشخيص كذلك للفعل إراديا).

ودخنت (بسكر العين): ألقي عليها حطب فأفسدت فهاج دخانها (والمعنى واضح, أي: حصل لها الدخان وأصيبت به فأصبح الدخان يحصل لها ويؤثر فيها).

دخن (بكسر العين) الطعام واللحم وغيرهما: إذا أصابه الدخان في حال شيه أو طبخه حتى تغلب رائحة الدخان على طعمه (وهنا معنى الحصول واضح).

ودخن (بكسر العين) الطبيخ إذا تدخنت القدر . وشراب دخن (بكسر العين) متغير الرائحة (أي: بالمعنى الحقيقي رائحته هي رائحة الدخان وبالمعنى المجازي: لم تبق رائحته الأصلية فتغيرت وأطلق اللفظ على سبيل العموم).

ودخن (بكسر العين) خلقه: ساء وفسد وخبث (معنى: حصل لها السوء والفساد والخبث) ودخن (بضم العين) النبت ودخنت (بضم العين) الدالة دخنه مثل دخن (بكسر العين).

(يستخلص منه الثبات والدوام على حالة الدخنة, أي: الكدرة, يعني: صار نهائيا في ذلك اللون أو لم يستطع الصبر على كثرة الدخان).

وإذا أخذنا مادة أخرى فيها الأبنية الثلاثة مثل "ش ر ف" ومعناه العلو نرى مايلي: شرفه (بفتح العين): غلبه في الشرف وشرف (بفتح العين) الحائط: جعل له شرفه, وشرفت (بفتح العين): الناقة: صارت شارفا (أي على سبيل التشخيص علت وارتفعت في السن) وشرف بكسر العين الرجل: دام على أكل السنام)بمعنى: غلبت عليه شهوة أكل السنام, أي: الشرف وهو السنام أصلا من نفس المادة) وشرفت (بكسر العين) الأذن وشرف (بكسر العين) المنكب: ارتفعا, أي: شرفا (بكسر

الراء), أي: صار مرتفعين . وشرف الرجل (بضم العين صار ذا شرف (أي: في حالة ارتفاع وعلو ثبتت فيه وأصبح يتصف بها). وشرفت بالضم الناقة صارت شارفا والفرق بين شرفت الناقة (بالكسر) وشرف (بالضم) واضح, فالأول ملحوظ الوصيف بعد عدمه, والثاني كثرته وتراكمه ودوامه حتى أصبح في أعلى درجة منه).

وفي مادة "حزن" حزن (بالكسرة) حزنا وله وعليه (بالضم) في الاستعمال تلافيا للطيرة مع أن مصدره جزونة بقي مستعملا بالمعنى الحقيقي وهو غلاظة الأرض وشدتها.

وفي مادة "بئر" بئر وبئر بالتثليث وجهة خرج به بئر: (والمفهوم الضمني المعاقبة بين الثاء والزاي: " بزر" والمعاقبة بين الثاء والصاد: بصر . ومراعاة القلب المكاني: ثبر. فيأتينا منه معنى القروح ومعنى الكثرة ومعنى نوع من الأرض وإذا وقفنا على وبثر (بالكسر) وجهه حصلت له بثور, وبثر (بالضم) المعاني بين فعل بالفتح) وفعل (بالكسر) وفعل (بالضم) وذلك في الأفعال كلها.

وباعتبار هذا كله نصل إلى الحقيقة الآتية وهي أن العربي كان ينطق حسب ما في دماغه من أغراض, واللغة العربية . داخل حدود نظريات وقواعد ثابتة . أداة تمتاز بطواعية للتعبير عن جميع ما يختلج الفكر, لا ميل لها في أي لغة من لغات هذا العالم.